الباب الرابع

محمد على والأزهر والعلماء

obeikandl.com

obeikandl.com

الأزهر والعلماء

العلماء هم الطبقة التي كانت لها في عهد المماليك نفوذ عظيم وتأثير كبير في الأمة وقيادة أفكارها وكانت لهم الزعامة الأدبية والسياسية بين الجماهير، وإليهم يرجع تدبير الحركات الشعبية التي ظهرت على مسرح الحوادث السياسية في عهد الحملة الفرنسية، وبعد انتهائها، وهم الذين اثاروا الشعب على حكم المماليك ثم على الوالي التركي، لكن نفوذهم قد تضاءل في عهد محمد علي وانحلت زعامتهم بتحاسدهم وتخاذلهم وائتمارهم واياه بالسيد عمر مكرم حتى انتهت المؤامرة بنفيه ، فلم تقم لهم قائمة بعد نفي زعيمهم واقصائه من الميدان، بل صاروا تبعاً للحكومة من غير أن يكون لهم أثر في سياستها أو في مشاريعها، لمناسبة الكلام عن عظم نفوذ العلماء في أوائل القرن التاسع عشر اذ كانوا موئل الشعب، يفزع إليهم عند وقوع الملمات، وكانت مساوئ خورشد باشا هي الباعثة على ذلك، ففي عهده قوى سلطان العلماء وبلغ نفوذهم أقصى مداه حتى اثاروا الشعب واقتلعوا بقوته الوالي عن كرسي ولايته واجلسوا محمد علي مكانه، ولم يسبق لهم هذا النفوذ من قبل، كما لم يخلص لهم مثله بعد انقضاء هذا العصر.

وفي الواقع انهم لم يخلص لهم نفوذهم القديم بعد نفي السيد عمر مكرم،

ولم يبق لهم إلا اثارة من الأحترام يسبغها عليهم انتسابهم إلى الدين والأزهر.

ومما زاد في تضاؤل نفوذ العلماء أن الأزهر ظل على نظامه القديم ولم يساير حركة التقدم والاصلاح التي نهض بها محمد علي باشا، فانتقل مركز الثقافة من الأزهر إلى المدارس والمعاهد والبعثات، وانكمش العلماء ولم يشتركوا في حركة التجديد والانشاء في مختلف نواحيها، فعجزوا عن الاشتراك في حروب مصر أو في ادارة حكومتها أو في سياستها وأعمال العمران التي قامت بها، وبديهي أن انعكافهم على المسائل الدينية، وعجزهم عن الاشتراك في الأعمال العامة التي تمت في عصرهم، كل ذلك كان له أثره في تضاؤل نفوذهم وإضعاف كلمتهم، اذ ما من شك في أن الفئة التي تخرجت من المدارس الحربية والبحرية أو العلمية والهندسية هي التي اضطلعت بأعباء الأعمال العامة سواء خارج مصر أو داخلها، وهم بحكم توليهم عبء الجهاد وسياسة الحكمة وحملهم لواء النهضة قد امتازوا على طبقة العلماء وحجبوها بما نالوه من السلطان والنفوذ، وتضاءلت منزلة العلماء وظهر الفرق جسيما بين ما آل إليه أمرهم من الضعف وخمول الذكر وما كان لهم من نفوذ وسؤدد حين تولوا قيادة الحركات الشعبية في عهد الحملة الفرنسية أو بعدها، وحين كانوا في أوائل حكم محمد علي يتقدمون الصفوف في العدو إلى

التطوع للجهاد دفاعاً عن الذمار كما فعلوا عند مجئ الحملة الانجليزية سنة ١٨٠٧.

ويحضرنا ما رواه الجبرتي عن رجوع إبراهيم باشا بعد انتصاراته في حروب الوهابية وكيف استقبل العلماء الذين جاءوا لتهنئته، فقد لاحظ الجبرتي أنه لم يقابلهم بالاحترام اللائق، وذكر في هذا الصدد: ان ابراهيم باشا رجع من هذه الغيبة متعاظماً في نفسه جداً، وداخله من الغرور مالا مزيد عليه، حتى أن المشايخ لما ذهبوا للسلام عليه والتهنئة بالقدوم وأقبلوا عليه، وهو جالس في ديوانه لم يقم لهم ولم يرد عليهم السلام، فجلسوا وجعلوا يهنئونه بالسلامة فلم يجبهم ولا بالاشارة.

فهذا الذي ذكره الجبرتي يعطينا فكرة عن تضاؤل منزلة العلماء بعدما كان لهم من صولة ونفوذ، ونعتقد أن تقصيرهم عن الاضطلاع بالأعباء العامة كان له أثر كبير في سقوط هيبتهم، فضلاً عن تحاسدهم وتنافسهم، وخذلانهم للسيد عمر مكرم، فلا غرو أن يقابلهم ابراهيم باشا بعد قدومه من حرب شاقة احتمل فيه ما احتمل من الشدائد والأهوال بغير المقابلة التي كان يقابلهم بها محمد علي في أوائل حكمه.

ومما يسترعي النظر أن يد الأصلاح التي تناولت التعليم والإدارة والري والحربية والبحرية لم تمتد إلى الأزهر، بل تركه محمد علي كما كان على نظامه القديم، ولعل السبب في ذلك أنه خشي أن يثير سخط

العلماء والجماهير إذا هو عرض لنظام التعليم فيه أو أقدم على اصلاحه وجعله يساير حركة التقدم العلمي الحديث، أو لعله لم يجد من بين العلماء من يضطلع بهذه المهمة ويعهد إليه بها ولو أنه وجد من بينهم مثل السيد جمال الدين الأفغاني أو الشيخ محمد عبده لنهض الأزهر منذ نيف وثمانين سنة نهضة علمية واجتماعية تؤتي أبرك الثمرات، ولكن محمد علي لم يفكر في اصلاح الأزهر، ولا فكر في علماؤه واقطابه، فوقفت حركته وانتقلت النهضة العلمية إلى المدارس النظامية التي أسسها محمد علي.

على أن الأزهر مع ذلك المورد السائغ الذي استمدت منه المدارس الحديثة والبعثات العلمية تلاميذها، فمنه اختارت الحكومة طلبة المدارس العالية التي انشأتها، وكثيراً من أعضاء البعثات العلمية التي أوفدتها إلى أوروبا، فتخرج منها بواسطة البعثات والمدارس علماء نابهون كان لهم القدح المعلى في نهضة مصر العلمية والاجتماعية، فالأزهر من هذه الناحية كان له فضل كبير على النهضة العلمية الحديثة، ومن جهة أخرى فالحكومة كانت تختار من رجاله بعض الضالعين في اللغة العربية لتنقيح وتهذيب الكتب المترجمة للغة العربية في الطب والرياضيات وغيرها، ويسمون المحررين، وطائفة أخرى لتصحيح الكتب عند طبعها وهم المصححون، ولهؤلاء وأولئك فضل كبير على نهضة التعريب والتأليف.

محمد على وعبد الناصر والأزهر

لم يكن الأزهر يوماً بعيدًا عن الحياة السياسية، إذ ظل عبر العصور قلعة الاسلام والممثل الأبرز للدعوة الاسلامية والعمل السياسي الاسلامي المستقل عن الحكام على مدار تاريخه، وحافظ على مكانته هذه في عصر المماليك والعثمانيين حتى بدايات عصر محمد علي، الذي بدأت في عهده عملية تقييد حركة الأزهر وتجريده من نفوذه السياسي على مراحل عدة، مرورًا بالجهود التي قام بها جمال عبد الناصر بعد ثورة يوليو ١٩٥٢م، وانتهاءً بما هو عليه الآن.

في البداية يقول الدكتور عبد الله بركات، الأستاذ بجامعة الأزهر الشريف وعميد كلية الدعوة الاسلامية الأسبق، أن مؤسسة الأزهر مؤسسة إسلامية دعوية تزود عن دين الله فتنفي عنه غلو الغالين وانتحال المبطلين وتهويل الجاهلين، وهو قادر بفضل الله ثم بجهد المخلصين من علمائه أن يقوم بذلك ولو أتيحت الفرصة وصلح حال المفسدين فإن الأمر لا يتوقف على البيان والتأليف وشتى صور البلاغ، إنما يحتاج الأمر قبل ذلك وبعده إلى القدوة الصالحة والاخلاص التام وتربية الأجيال على ذات المباديء، ولكي يتم ذلك لابد من قيادة رشيدة ورؤية واضحة وعطاء وجهد غير مقطوع ولا ممنوع.

وكان قدم ملفاً لإصلاح الأزهر بعد ثورة ٢٥ يناير مباشرة لرئاسة الوزراء ومجلس الشعب المنحل وشيوخ الأزهر المعتبرين ورئاسة الجمهورية ضم عينة لآراء ١٠ آلاف طالب من أبناء مؤسسة الأزهر في كل قطاعاته، وشمل الملف رؤية واضحة لإعادة هيكلة الأزهر ووضع ضوابط ومعايير تقوم على الوضوح والعدل وفق آليات محددة.

وأضاف بركات أنه أنشأ الجمعية الاسلامية العالمية لأبناء ومحبي الأزهر الشريف والمشهرة برقم (٢٠١٢/٨٧١٠م)، تحت رئاسته ونيابة الدكتور أحمد عيسى المعصراوي، وأمانة الدكتور صبري عبد الرءوف والدكتور عبد الخالق حسن يوسف كأمين للصندوق، بالاضافة إلى نخبة من علماء الأزهر وأئمة الأوقاف والوعظ.

وأوضح أن رؤية الجمعية تدور حول تحقيق عالمية الأزهر ووسطيته وتحريره من التبعية السياسية وتجسيد رسالة الاسلام الخالدة وفق منهج النبوة وإحياء وتفعيل دور الوقف الاسلامي الذي كان محور عطاء الأزهر على مدى أكثر من ألف عام وبعودته يتمكن الأزهر من ريادته وتتحقق به.

كما تهدف الجمعية إلى رعاية الطلبة والطالبات غير المصريين وتأهيلهم ليعودوا إلى بلادهم سفراء للإسلام ورعاية الطلبة والطالبات المصريين المحتاجين والمغتربين والمتميزين وتقديم المشاركة الفعالة

للمجتمع بإعداد دراسات علمية لحل مشكلات التعليم والتربية والاجتماعية وإقامة دورات علمية ومؤتمرات للتدريب والتأهيل والتطوير ودعم البحوث العلمية التي تعالج مشاكل المجتمع في مرحلتي الماجستير والدكتوراه واكتشاف الموهوبين والمتميزين ورعايتهم علميًا وماديًا في مراحل التعليم المختلفة وإحياء الوقف الاسلامي الخيري الداعم للنهضة الايمانية.

ورغم جميع المحاولات التي مارستها السلطة تجاه علماء الأزهر إلا أن علماءه صمدوا أمامها، وتصدوا للأنظمة الحاكمة، وصدعوا بالحق في وجوه الطغاة، وامتد جهادهم إلى خارج القطر المصري قال جمال عيد، الباحث بالشبكة العربية لحقوق الانسان إن الأزهر تم تجريده من دوره السياسي منذ عهد محمد علي، ولعلنا نتذكر ما فعله محمد علي ومن بعده خلفاؤه معه موضحاً أن ذلك النهج يمكن تلخيصه في كلمة الخديو عباس حلمي الذي قال فيها محدداً دور الأزهر: أول شيء أطلبه أنا وحكومتي أن يكون الهدوء سائداً في الأزهر والشغب بعيداً عنه، فلا يشتغل علماؤه وطلبته إلا بتلقي العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيغ العقائد وشغب الأفكار لأنه مدرسة دينية قبل كل شيء، وأطلب منكم أيها العلماء أن تكونوا دائماً بعيدين عن الشغب وأن تحثوا إخوانكم العلماء وكذلك الطلبة على ذلك، ومن يحاول بث الشغب بالأقوال أو بواسطة

الجرائد والأخذ والرد فيها فلسوف يكون بعيداً عن الأزهروأضاف: أن الحكام حرصوا منذ نابليون حتى الأن على منع الأزهر من العمل السياسي كما حرصوا في الوقت نفسه على توظيف الأسلام وعلماء الأسلام لتحقيق أهداف الحاكم السياسية كلما أمكن ذلك.

ولم يشذ جمال عبد الناصر عن ذلك النهج فاتخذ العديد من الخطوات للسيطرة على الأزهر وتوظيفه لصالح أهداف نظام يوليو١٩٥٢م، حيث تضمن المرسوم بقانون رقم ١٨٠ لعام ١٩٥٢م، أي في أول خمسة أشهر من حكم مجلس قيادة الثورة، إلغاء الوقف الأهلي، كما كانت هناك إجراءات صحبت ذلك كله وأخرى تتابعت في السنوات التالية أدت إلى وضع الدولة يدها بشكل كامل على الأوقاف عبر وزارة الأوقاف التي سلمتها بشكل أو بآخر إلى الهيئة العامة للإصلاح الزراعي، في الوقت الذي استثنيت فيه أوقاف غير المسلمين من أحكام هذه القوانين، حيث وضعت لها قوانين خاصة وتركت لكل كنيسة أوقافها في حدود مائتي فدان وما زاد على هذا كانت الدولة تأخذه وتدفع ثمنه بسعر السوق، وهو ما أدى في أواخر السبعينيات إلى مناداة عدد من الأصوات في مجلس الشعب بمساواة أوقاف المسلمين بأوقاف المسيحيين ثم كان إلغاء المحاكم الشرعية خطوة بارزة قامت بها ثورة يوليو لتقليص دور الأزهر في الحياة العملية للمصريين.

وأوضح الباحث بالشبكة العربية لحقوق الأنسان، أن أجهزة إعلام الدولة شنت حملة إعلامية صاحبت ذلك كله ووصفته بأنه ثورة جديدة تجري داخل الأزهر وتقودها الدولة من أجل التجديد والتقدم لخدمة الأزهر والاسلام وبلغ الأمر أن هاجم د. محمد البهي في جلسات مجلس الشعب ١٩٦١م ما وصفه بأنه جو العداوة والجمود الذي يسود الأزهر وقال: إن الثورة أعطت الاصلاح للأزهر لأن الشيوخ لم يريدوه وكان محمد البهي أحد الموالين لعبد الناصر داخل الأزهر.

وكانت النتيجة أن الأزهر لم تصدر من داخله أية مواقف أو تصريحات تعارض النظام الحاكم لا من قريب ولا بعيد بل بالعكس وقف إلى جانب جمال عبد الناصر في كل مواقفه ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر الفتوى التي أصدرها شيخ الأزهر يساند بها جمال عبد الناصر في صراعه مع محمد نجيب (الأهرام ١٧ فبراير ١٩٥٤م) والتأييد الذي قدمه الأزهر لنظام حكم جمال عبدالناصر فيما يتعلق باتفاقية الجلاء (الأهرام ٢٦ فبراير ١٩٥٤م) وكذلك المساندة التي قدمها إثر الأزمة مع إسرائيل التي سبقت هزيمة يونيو١٩٦٧م بإعلان تأييده لجمال عبدالناصر ومباركته لخطواته في صد عدوان الصهيونية والاستعمار (الأهرام ٢٥ مايو ١٩٦٧م) وتابع الباحث قائلاً: استمر الأزهر على هذا النهج مع خلفاء جمال عبدالناصر، الرئيس السابق أنور السادات

والمخلوع حسني مبارك وقد أدى ذلك كله لإضعاف مكانة الأزهر في نفوس المسلمين وبالتالي تدهور دوره ومكانته كمرجع عالي للدعوة الاسلامية والافتاء لكل المسلمين وبدأ الكثير من المسلمين يضعون ثقتهم فى العديد من الناشطين الذين ينتمون للحركات الاسلامية الذين يطلق عليهم الدعاة.

obeikandl.com